

الشيخ محمد الخضرى بك

١٨٧٢ - ١٩٢٧

المؤلف: الأستاذ محمد عبد الجواد

الأستاذ بمعهد التربية للعلوم بالزمالك

كتب الشيخ رحمه الله « تاريخ حياته » مفصلاً في عدة كراسات تربو على العشر . ولم يكتب فيه بسرد الوقائع والحوادث ، بل كان يعلق على كل شيء يراه ، أو حدث يمر به ، فيفسره أحياناً نفسياً ، أو يعلق عليه تعليقا اجتماعياً . وكثيراً ما حذر من آثار الخطأ الذي كان يشاهده ، أو نصح لغيره بما يراه من صواب أو نهج مستقيم .

وقد قدر الكاتب هذه السطور أن يقتحم هذه الكراسات وأن يتصفح ما تبعها من الأوراق ، فاستهوته آراء الشيخ وملاحظاته ، وكادت تنسيه ما يريد من ذكر شيء عن حياة الشيخ ، رغم ما ناله من مشقة في قراءة ما كتبه بالمراد أحياناً ، وبغيره أخرى . غير أنه قد اطلع على ما فيها وأثبت شيئاً من روح الأستاذ في كتابته ؛ وهو يرى بهذا النموذج الترجمة للأستاذ إلى عدة أغراض :

الأول : - تعويض ما ناله من التعب في القراءة ، وما قطعه من الوقت الطويل في الاطلاع على المکتوب ، وإن استمتع بما قرأ .

الثاني : - أنه أحب أن يطل روح الشيخ بما كتب ، على قراء الصحيفة

الثالث : - أنه ينفذ لصاحب الترجمة بعض ما يعتقد أنه كان يود ، من نشر

شيء عن سيرته ، ولو موجزاً إيجازاً مخلاً ، وما لا يدرك كله لا يترك كله ، وإليك ما أراد من تلخيص :

حياته في المكتب : أشرف على السابعة وهويين يدي المعلم في المكتب،

ويدي أبويه في البيت .

كان أبوه عالماً متديناً ، جمع إلى حب ابنه قسوته عليه ، لأنه كان ضيق الصدر سريع الغضب ، لا يملك قياد نفسه إذا رأى غير ما يريد . كانت عصاه إلى جسم ابنه أسرع من كلامه إلى أذنه وقلبا كان يراه يتقسم لثلاث يجرؤ ابنه عليه .

ولم يكن يخوفه من معلمه بأقل من خوفه من أبيه ، لأنه رأى من قسوة الفقيه ، ومنع من وصية الآباء بالشدة مع أبنائهم ، ما هو معلوم من قولهم للفقيه أو المعلم : إكسر وأنا أجبر .

قد استحوذ عليه الخوف ، واستولى عليه الذعر ، فإذا ما سئل عن شيء صاغ له من الكذب ما ينجو به ، وربما علمته أمه الكذب . ويقول : إنه مهر في هذه الصناعة ، وكثيراً ما استعان عليها بيمين الله ، ذلك لشدة خوفه ، على الرغم مما كان يصيب والده إذا وعك . ولكن الولد اتخذ من ذلك ذريعة إلى خداع أبيه بالتمارض ، فجمع بين رذيلتي الكذب والخداع .

اعتاد أن يوقظه أبوه في السحر ليندب معه إلى المسجد لصلاة الصبح جماعة وفي أول وقتها . أراد بذلك أن ينشئ ابنه على عبادة الله ، ويغرس حبها في نفسه . فكان الطفل يذهب مع أبيه بملابس لا تنقيه ألم البرد في الشتاء وقد توضع اليد في البيت وتدر بما يكفيه .

وصف ميضأة جامع شيخون ، وبرودة مائها ، وصحن الجامع الرخام ، وذكر كيف مسح بالماء على وجهه مسحاً ، وقطع الصحن عدواً ، ووقف بجانب والده وصلى فريضة الصبح ، ووالده مسرور به مع أنه قد خدعه .

لم يكن أبوه من ذوى اليسار ، فهو عالم من علماء الأزهر ، خطيب في جامع ألماس بشارع الحلبية ، يتناول من الجهتين مرتباً لا يني بحاجه وحاج أهله إلا مع القصد الدقيق . وكان الولد يذهب إلى المكتب كل يوم ، ومعه رغيف وقطعة من النحاس ، هي « القرش الخردة » . يرى الأطفال في المكتب

يتفككون بأكل الحلوى ، فيود أن يقف موقفهم ، ولكن لاسبيل إلى ذلك
بإمانة الله .

اضطرت له حالته هذه إلى اختلاس قرش من جيب أبيه حينما خلع ملابسه
وهو يصف موقفه هذا بدقة ومهارة . وكرر الاختلاس وأغراه النجاح فيه
حتى اقتطع من كيس أبيه مرة أربعة قروش دفعة واحدة . كان ذلك أول الشهر
أراد الشيخ أن يعد دراهمه ليقسمها بين مقتسميها ، فاكتشف السرقة وسأل
الأم في ذلك ! خاف الولد مغبة الحادث فأسر إلى أمه بما كان ، فعادت
واحتالت على الشيخ الذي غضب وألقى إليها النقود لتعدها ، يان أعادتها إليه
كاملة ، بعد أن ضمت إليها القروش الأربعة

ولم يكد يتم العاشرة من عمره حتى حفظ القرآن الكريم
وقبل أن يسرد لنا حياته في الأزهر ذكر شيئا عن حج أبيه سنة ١٣٠٢
ووفاته سنة ١٣٠٦ المناسبة تتعلق بهما : سافر أبوه إلى الحجاز سنة ١٣٠٢
سنة ١٨٨٥ ، وترك مع ابنه - وهو في الثالثة عشرة - خاتمه ليقبض به مرتبه
فوقع به على شهادة لأحد المجاورين . ولما عاد أبوه من الحجاز علم بالأمر
من الشيخ المهدي شيخ الأزهر ، وأخبرت الولد أمه باطلاع أبيه وأسرت
إليه بحيلة لدرء خطر العقوبة على هذا الجرم الكبير ، وهي أن يستحلف أباه
باسم شيخه الشيخ الحضري ، وقد فعل ونجا من العقوبة .

يذكر المترجم أنه فرح بنجاحه فرحا عظيما ، وورث من أبيه حب شيخه
الشيخ الحضري ، وذهب صبيحة الجمعة إلى القرافة فزار جدت الشيخ ، وأخبر
أباه بهذه الزيارة ، فدعاه وأهداه هدايا حسنة .

بجانب هذه الصورة الأخيرة لحب المعلم ، بقيت عنده صورة الخداع
والمكر ، ولا يدرى أيهما كان أقوى أثرا .

مات أبوه سنة ١٣٠٦ ١٨٨٨ ، وترك له أمه وخمسة أشقاء لا يزال
أصغرهم رضيعا ، وقد أشرف هو على السابعة عشرة . ذهب إلى شيخ الاسلام
والدموع تتم عمامه من الحزن ، لفقد الوالد والحيرة في تجهيزه . قبل يد الشيخ

وقال له إن أباه قد مات ، فقال له : ومن أبوك ؟ قال : الشيخ عفيفي الباجوري فقال : رحمه الله ! قل للشيخ .. يأمر المؤذنين بالتبرير على المنارات . وكفى . عاد إلى منزله وهو يفكر في أمر العلماء المؤسرين ، ويذكر أن جيرانه الفقراء قاموا بالواجب نحو جثة أبيه ، ومأتمه الليالي الثلاث .

أيامه بالأزهر

كانت مدة إقامته بالأزهر نحو سبع سنوات [شوال سنة ١٣٠١ ، أغسطس سنة ١٨٨٤ جمادى الأولى سنة ١٣٠٨ ، ديسمبر ١٨٩٠] حضر فيها فقهًا ونحوًا وتفسيرًا وحديثًا ومنطقًا وبلاغةً وتوحيدًا . وقد أطلال المترجم بصدده ما أفاد من دروس الفقه والتوحيد والمنطق وعلوم العربية والتفسير والحديث وغيرها وتعرض لشيء مما صادفه في الكتب وحواشيها مما لا يتفق مع العلوم الكونية والواقع ، وذكر كثيرًا من الأشعار والقطع المنظومة ، في قصص الأظافر ، ومعرفة ليلة القدر ، ونحوها كالحكم في جواز الاشتغال بالمنطق ، وأوجه البسمة المعروفة .

وكان شيوخه في الفقه أربعة هم أبوه [الشيخ عفيفي الباجوري] والشيخ سليمان العبد والشيخ محمد الطاهري والشيخ محمد إبراهيم القاياتي ، رحمهم الله أجمعين ، حضر عليهم شروح ابن قاسم والخطيب ، وتلقى التحرير وشرح المنهج . وكان يظن عند دراسته أنه سير في عن درجة العامة في العلم الذي يحسن العمل ويرقيه ويجعله أقرب إلى الله منهم ؛ غير أنه يعترف بأنه لم يفد مما قرأ من الفقه تحسینا في عمله ولا ترقية فيه . فإن صلاته قبل تفقهه كانت صلاة العامة ، أما بعد ذلك فقد صارت صلاة روعيت فيها الصناعة الفقهية ، واشتدت غفلته عن يصى له ، وهو لذلك يرى أن صلاته كانت أقرب إلى العمل الآلى الذى لا يشترك فيه القلب إلا قليلا .

وقد قرأ في العلوم العربية سبعة كتب آخرها شرح الاشموني على متن الألفية .

أما علوم البلاغة فقد بدأ في حضور شرح السعد وتلقى من السمرقندية ،
ويذكر أنه لم يكن له من وراء هذه العلوم غاية يسعى إلى دركها .
وقد نال شيء من البركة بحضور درس في صحيح مسلم على المرحوم الشيخ
البسيوني سنة كاملة .

ويذكر أنه حافظ على حضور دروسه بالأزهر ، إذ كان يذهب إليه
صبيحة كل يوم ويعود منه بعد العصر ، وليس لديه ما يليه عن استذكار
دروسه ، إلا أنه قد أوقعه سوء الحظ في غرامه ببعض الألعاب التي منها لعبة
(الدمينو) ، حيث لحظ اللاعبين في إحدى المقاهي التي كان يمر بها ، ويتفرج
فيها ففهم على أن يلعب مع لاعبيها ، وقد تأخر عن مواعيده المعروفة لوالده .
وكان يخبره عند سؤاله أنه يتلقى درسا بعد العصر ، يريد أنه يخدعه كعادته .
ويقول إنه بعد وفاة والده اتسعت حريته وتالت نفسه من هذه اللعبة بغيتها
وبرع فيها بغشه لمن يلاعبه ، وكان يعتمد الكذب أحيانا . وكثيراً ما كان يتلوى
بذلك عن صلاته ، وكان إذ ذاك خطيباً مكان أبيه . وقد ذاع أمره في ذلك ،
وكاد يفتضح حاله ، لولا أنه خشي على قلب أمه من الحزن ونسكته في وظيفته ،
التي عليها قوام منزله ، فلم يعد إلى اللعب بعدئذ أمام من يخشى شر قائمهم .
وهو يرى في ذلك ، صوراً رديئة وآثاراً سيئة ، سجلها تحت هذا العنوان
في مذكراته .

دخوله دار العلوم :

بينما كان يمشي ذات يوم بحارة السادات (بدرب الجميز بالقرب من
مكان دار العلوم القديم) بجانب أبيه ، إذ سأله ، أحق أن هنا مدرسة اسمها
مدرسة دار العلوم ؟ ، قال ذلك بعد تردد وخوف من أبيه . فوقف أبوه فجأة
كأن أمراً هائلاً قد فدحه ، وقال له ووجهه مغضب : هل كنّا ولم نشعر ،
كررها مرتين . وقد حاول الولد تحليل السؤال أو الاعتذار عنه لأبيه فلم
يفلح . وكان أباه قد شمر برغبته في الابتعاد عن الأزهر بدخوله هذه المدرسة
التي كان هو وشيوخه يرون أن فيها تعاليم تفسد عقيدة المسلمين !

وبعد وفاة أبيه بسنتين كان يدرس لبعض الأفندية من كتاب الدواوين
درسين وكان الذي يدرس له النحو يمجبه أن يراه طالبا في دار العلوم ثم
مدرسا بالمدراس ، فألح عليه في دخولها ليتعلم بها من العلوم ما لم يكن بالأزهر
« بل ما كان يحدث به جريمة من الجرائم » ، فلان له ، وقام الأفندي بتقديم
الطلب وحمله على الذهاب للامتحان .

وقد قبل بالمدرسة في أوائل سنة ١٨٩١ بين من قبل ، ولكن في القسم
الاعدادي الذي ألقى قبل انتهاء السنة المسكنية ، غير أنه لما ألقى هذا القسم
عاد فلاح بالمدرسة في أكتوبر سنة ١٨٩١ بالقسم العالي وحمد الله
على الدخول .

وقد بقي بالمدرسة أربع سنوات تقدم فيها إخوانه ، وكان في نفسه منها
صور ذات آثار . وهو لا ينسى فيها ألمه لحادث لا يد له فيه ، وذلك أن شركة
كوك طلبت إلى نظارة المعارف اختيار جماعة من طلاب المدارس العالية بها
تحمليهم على إحدى بواخرها في النيل ، لزيارة الصعيد وآثاره . وطلب من
ناظر المدرسة أن يختار عددا من طلبة مدرسته ، فاختار الأول والثاني من كل
فرقة للقيام بهذه السياحة ، ماعدا فرقته التي اختار منها الثاني والثالث ، وترك
الأول ، وهو المترجم ، لفقره ، وهو يتألم لذلك ويقول « مسكين هذا الذي
يتألم ، ولا يجد من يشكو إليه آلامه ، بل لا يجد حلا للشكوى » . ومع اعتذاره
عن إدارة المدرسة بأنها أرادت أن يظهر طلاب المدرسة بمظهر اليسار ، أمام
سائر الطلبة ، حتى لا يكونوا عرضة للاحتقار والاستخفاف فأنى — أيها
الكاتب — أتألم لألمه .

وفي مارس سنة ١٨٩٥ طلب اختيار طالب بالسنة الرابعة للتدريس
بمدرسة الصناعة بالمنصورة ، على أن يعود لأداء الامتحان آخر العام ، فاختير
هو لذلك ، وسافر إليها في ١٩ من مارس سنة ١٨٩٥ ، وبعد شهرين عاد إلى
مصر وأدى امتحانه ، ثم عاد إلى المنصورة مدرسا بعد الاجازة الصيفية .

في التدريس والقضاء

- شهر سنة
- عين في ١٩ مارس سنة ١٨٩٥ مدرسا بمدرسة الصناعة بالمنصورة
- ٤ ٦ لغاية أغسطس سنة ١٨٩٩
- في سبتمبر سنة ١٨٩٩ نقل إلى شبين الكوم ومكث بها لغاية
- ٢ ٤ ديسمبر سنة ١٩٠١
- في يناير سنة ١٩٠٢ نقل إلى مدرسة الناصرية ومكث بها لغاية
- ٨ - أغسطس سنة ١٩٠٢
- وفي أول سبتمبر سنة ١٩٠٢ عين قاضيا بالسودان ومكث به
- ٢ - لغاية أغسطس سنة ١٩٠٤
- وفي أول سبتمبر سنة ١٩٠٤ عين أستاذا بكلية غردون بالسودان
- ٢ - ومكث به لغاية أغسطس سنة ١٩٠٧
- وفي أول سبتمبر سنة ١٩٠٧ عين أستاذا بمدرسة القضاء الشرعي
- ١٣ - وبقي بها إلى سنة ١٩٢٠
- ثلاثة وعشرون عاما قضاها في التدريس ، وتخللها سنتان في القضاء ، عمل فيها مع خمسة من نظار المدارس على اختلاف أسنانهم وألوانهم ، وهم : على ثروت ، محمد رشدي ، أمين سامي ، أحمد هدايت ، محمد عاطف بركات .
- ولم يرد الأستاذ أن يمر ببلد أو ينقل إلى مدرسة بدون أن يقيد شيتا عن المكان ومن به ، ونحن نذكر قليلا بما قيده :
- في مدرسة الصناعة بالمنصورة : وبخ تليذا فرد عليه قائلا : « جئنا لتعلم ، لا لنسمع الكلام الفارغ » ، فقال له الأستاذ : « لقد أصبت يابني وأخطأت ، فجلس التليذ ثم جاء إليه واعتذر . فشكر له اعتذاره ، واعتبر مادار بينه وبين التليذ في مبدأ عمله مرشدا له في سلوكه مع تلاميذه .
- في شبين الكوم : كان يشتغل بدروس الخط ، وبالأعمال الكتابية ، وكانت صلته بالنظر في الأعمال الكتابية سببا لكثير من المتاعب ، لما كان يحصل

بين الناظر « محمد رشدي » صديقه ، الذي كان معه مدرسا بالمدرسة الابتدائية بالمنصورة ، والأساتذة الخمسة المشايخ .

وهو بذلك يوصي المدرسين ، لا سيما المشايخ منهم : ألا يجعلوا لسوء التفاهم بينهم وبين النظار سبيلا ، وأكثر ما يأتي هذا البلاء من الفضول ، فينبغي ألا يشتغلوا إلا بما يعينهم ، ويتركوا ما لم يكلفوا مراقبته ، ويوصيهم أيضا بالتعاون ، لأنه إذا اختل فسد كل شيء معه ، وذكر من حوادث المدرسين في غيابهم المصطنع بعض الحكايات .

ذكر علاقته بأهل شين السكوم ، وأنهم لا يألفون ولا يؤلفون ، بعكس أهل المنصورة ، الذين كان يغشى مجالسهم كثيرا ، وقلما كان يعرف أحدا من موظفيها . بخلاف شين .

ذكر صداقته لمدير المتوفية « محمود صبري باشا » وجه له لتواضعة ، وإكرامه لأهل العلم ، وأنه كان أقوى ساعد لنشر العلم في مديريته وذكر إحالته إلى المعاش ومجيء مدير الدقيلية مكانه .

ذكر معرفته لعبد الله الطوير بك وكيل نيابة شين السكوم ، وسمعه معه ، وأنه تعلم كثيرا من الألعاب ، ومنها « البلياردو » وشغفه بها ، وبخاصة في عصر رمضان ، لما فيها من الرياضة والنسيلة ، وكذلك في لعبة اليزبك ، من العشاء إلى السحور .

وإجمالا كان وقته في شين ضائعا ، على عكس المنصورة .

ذكر أنه استمر في الكتابة ، وأنه كتب خمس مقالات ، في المؤيد ناقش فيها المرحوم قاسم بك أمين بعض ما رآه في كتابه .

وذكر أنه اشتبك مع جورجى زيدان بسبب رواية « عذراء قریش » وأن الذى حرصه على ذلك هو المرحوم محمد بك فريد ، وقد وصفه بقوله : « إن هذا الشاب كان من الأفراد الذين قلما أنجبت مصر مثلهم ، فقد كان ملوئا من فرقه إلى قدمه ، إيمانا وإخلاصا ، إذا كان في المصريين أحد قام مجاهدا في سبيلها لا يريد جزاء ولا شكورا ، ولا يفيد من الجمهور أية فائدة ، فهو

محمد فريد ، وإذا قارته بذلك الشاب الذي طار صيته ، علا ذكره ، (يريد مصطفى كامل باشا) رجع فريد رجحانا كبيراً ، لأن مصطفى كان يرى نفسه ثم مصر ، وفريد كان يرى مصر ولا يرى نفسه ، وأن الذي أعرفه من دخائل الرجلين وأوليتهم ما يجعلني أضع فريداً في أرقى الدرجات .
أنا لا أبخس مصطفى حقه ، فهو شاب نبيه ، متع بوجه حسن ، وصوت حسن ، بذل مجهوداً كبيراً في إقامة الحياة الوطنية ، ولكن شتان بين الرجلين !! ، اهـ .

في الناصرية : كان مع أمين سامى بك ، ويعتبره أحسن ناظر ، وأكثرهم أدبا ، ولم تطل مدته في الناصرية .

في كلية غردون : ذكر أن الذى أسسها لورد كتنشر إحياء لاسم غردون باشا الذى ضحى بنفسه لمصلحة قومه ، واكتب الانجليز في بلادهم بنفقات بنائها ، وهم قوم سباقون إلى الجود بما يعلون أنه يبق لهم في الصالحين أثراً ، وذلك سبب من أسباب عظمتهم ، وقوة شوكتهم

كان يعلم الفقه والأصول وبعض الدروس العربية ، ويذكر أنه تلقى الأصول على الشيخ حسن الطويل ، وعمل مذكرة كانت أساساً لما ألفه فيه في أوائل سنة ١٩٠٥ زار الامام الشيخ محمد عبده السودان فاهتمت البلاد بمقدمه ، الانجليز والمصريون والسودانيون وزار الكلية وشجعه بكلمات طيبة واطلع على ما كتبه في أصول الفقه ، فامتدحه وطلب إليه قراءة الموافقات للشاطبي .

في مدرسة القضاء الشرعى : لم يصل إلينا مادونه عن مدرسة القضاء الشرعى ، ولعل تاريخه فيها معروف للعاصرين . ولكنه يذكر لنا كثيراً عن صلته بالسلطان حسين وابن أخيه فؤاد .

معرفته بالسلطان حسين : بعد أن ولى السلطان حسين سنة ١٩١٤ زار الأزهر ومدرسة القضاء الشرعى ، فزار الأستاذ فيمن زارهم بها ، وكان عضواً في لجنة تعديل قانون الأحوال الشخصية ، فأعد الأستاذ درساً أشار في آخره

إلى هذا التعديل ، فصاحه السلطان وضمه إلى صدره . خطب له أول خطبة في افتتاح جامع الخواص بشارع وجه البركة ، فخلع عليه خلعاً من فرو والسمور ومنحه ساعة ذهبية . قابل السلطان مراراً ، بعد ذلك في مناسبات ذكرها ، فمنحه في أحدها منحة مالية قدرها خمسون ذهباً في أول نوفمبر سنة ١٩١٦ ، وسافر معه في رحلة إلى الصعيد ، فشفعها بمثلها ، وكانت جلساته مع السلطان ذات أثر خاص في نفسه ، وهو في ذلك يقول :

واستفادت نفسي من اتصالى بالسلطان حسين فائدة كبيرة ، هي الجراءة في قول ما أعتقده حقاً . اعتدت معه ذلك ، فكانت نفسي تحدثني : إذا كانت هذه عادتك مع سلطان كبير ، فكيف تنزل عنها مع من هم أقل منه شأنًا وأضعف سلطاناً . ولا أذكر أني زوقت له الكلام مرة ، أو حدثته بشيء لغرض إرضائه ، وكنت أشعر أن ذلك يسره ، وقد بقي يحبني ، حتى فرق الموت بيننا ولم أجد شيئاً يكافئ حبه لي إلا أني أحبته في حياته وبعد مماته .

أحببت أن أبقى على الوفاء لبيته الكريم ، وكنت أجد لذلك سروراً عظيماً ، إلا أن السيدة العظيمة ، والسلطانة المحترمة ، السلطانة ملك ، قللت ما كنت أشعر به من سرور الوفاء ، بما كانت تقيضه علي من أيادها من وقت لآخر ، حتى صرت أخشى أن تكون تلك الأيادي هي التي تحملني على الشرف بزيارتها ، اهـ

محمد عبد الجواد

الاستاذ بمعهد التربية العالي